النظم القرآني

تركيب الآية والجملة في القرآن الكريم

يُعنى الباحثون في الدراسات اللغوية في العصر الحديث بطرائق تركيب الكلام في كل لغة، وتطور هذه الطرائق خلال عصورها المتعاقبة، فيدرسون أساليب اللغة في ربط أجزاء الجملة، وربط الجمل بعضها ببعض، والصلة بينها وبين ما يقابلها من الدلالات والمفاهيم، وارتباط هذه المفاهيم في أذهان أهل اللغة، وهو ما يطلق عليه علماء فقه اللغة الفرنسيون لفظ Syntaxe، ويقابلها في العربية نظم الكلام. وقد استعملها أسلافنا في مثل هذا الموضع للنثر كما استعملوها للشعر. وهذه المباحث موزعة في العربية بين علم النحو والمعاني؛ فبحث تقديم الخبر على المبتدأ وبحث الجمل الشرطية والموصولة (صلة الموصول) ومواطن استعمال صيغة المضارع للماضي والماضي للمستقبل من أبحاث النحو تدخل في هذا الباب، وبحث التقديم والتأخير في علم المعاني والإطناب والإيجاز وأساليبها والقصر وضروب استعمال الاستفهام لأغراض متنوعة، ومواطن الحذف والذكر وغير هذه من الأبحاث تدخل كذلك في باب نظم الكلام. وقد عني النقاد وأهل الفن في هذا العصر كذلك بنظم الكلام وأساليب تركيبه، وكان هدفهم من هذه العناية تلمس الجمال الأدبي في تلك الأساليب وفتشوا عن التراكيب التي تحقق لهم حلاوة النغمة وجمال الجرس أو المقابلة بين أصوات الحروف والمدود في تأليفها، والموضوع الذي تدل عليه وتعبر عنه بحيث يُقابل الجرس القوي والنغمة الشديدة شدة الصورة

أو الفكرة ، والنغمة الناعمة المنسابة والجرس الهادئ ، المشهد الحلو الجميل ، والصورة المحببة ، والفكرة العذبة ، والتأمل الهادئ العميق .

ولا يزال مجال البحث في نظم الكلام وتركيبه في اللغة العربية نظرياً ، واعتباره في النصوص الأدبية خلال العصور رحباً واسعاً لقلة من مالوا إليه وانصرفوا إلى العناية به . وقد جذبني هذا الاعتبار في أثناء دراستي وتدريسي للتفسير الأدبي لكتاب الله العظيم ، وكنت ألاحظها وأقف عندها في قراءتي وتأملي لآياته . وقد ضمنت كتابي (من منهل الأدب الخالد . دراسة أدبية لنصوص من القرآن) بعض هذه الملاحظات في معرض شرح بعض السور والآيات التي شرحتها فيه ، وقد رأيت من المفيد جداً سواء في الدراسات اللغوية أم في الدراسات القرآنية ، إفراد هذا الموضوع بالبحث والانطلاق بعد ذلك للتوسع فيه توسع تعمق بالنسبة إلى القرآن الكريم ، وتوسع امتداد إلى نصوص العربية في مختلف عصورها بعد ذلك . وليسمح لي القارئ أن ألقي بين يديه بداية مختصرة ونماذج يقاس عليها ويضاف إليها .

١ ـ الجملة والآية :

الجملة هي الوحدة الأساسية للكلام عند النحاة . أما الآية فهي الوحدة التي يتألف منها النظم القرآني ولذلك فهي شيء آخر مختلف عن الجملة لأنها ليست وحدة معنوية أو نحوية وإنما هي الوحدة الفنية أو اللبنة التي يتألف من أمثالها صرح هذه المعجزة البيانية الإلهية التي هي القرآن .

ولهذا فقد تكون الآية جملة تامة وقد تكون جزءاً من جملة أي إن الجملة تتألف من عدة آيات وقد تشتمل الآية الواحدة على جمل متعددة . الأصل أن الآية وحدة ترتيلية أي أن القارئ يقف عند فواصلها إلا في حالات قليلة محدودة لا يجوز فيها الوقف لإخلاله بالمعنى كقوله تعالى « فويل

للمصلين — الذين هم عن صلاتهم ساهون » أو لأن الوصل أحسن وأفضل ، ويقف القارئ في آخر الآية ولو كان الكلام متصلاً والمعنى متسلسلاً إذا لم ينشأ عن هذا الوقف تغيير في المعنى ، وهكذا تكون الآيات فقرات من الكلام يرتلها القارئ ويستريح بعدها قليلا ، ثم يتابع التلاوة ويتصل المعنى في ذهنه وفي ذهن السامع .

(أ) فمن أمثلة الجملة التي تتألف من آيات النماذج التالية :

« فأما من أعطى واتقى ● وصدق بالحسنى ● فسنيسره لليسرى » ثلاث آيات في جملة واحدة .

« وأما من بخل واستغنى ● وكذب بالحسنى ● فسنيسره للعسرى » ثلاث آيات في جملة واحدة .

« إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون ● والذين هم بآيات ربهم يؤمنون ● والذين هم بربهم لا يشركون ● والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون ● أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون » (المؤمنون ٥٧) وهي تتألف كما ترى من خمس آيات والمبتدأ في الآية الأولى والخبر في الخامسة .

فالآية هنا جزء من جملة ولا يتم المعنى إلا في عدة آيات ، وإن كان القارئ يقف في آخر كل آية وقفة استراحة أو وقفة ترتيل لا وقفة انتهاء المعنى .

(ب) وقد تكون الآية جملة تامة مستقلة كقوله تعالى : وربك فكبر وثيابك فطهر والرجز فاهجر ولا تمنن تستكثر ولربك فاصبر » .

وكقوله تعالى : « وبنينا فوقكم سبعاً شدادا ، وجعلنا سراجاً وهاجا ، وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا » وإن كانت هذه الجمل أو الآيات تتتابع وتتعاطف .

(ح) وقد تتألف الآية الواحدة من عدة جمل متعاطفة أو متداخلة بحيث تؤلف تركيباً بنائياً لا تقبل أجزاؤه الانفكاك ، وستأتي نماذج من هذا النوع في خلال الكلام على الآيات الطويلة ، ومن هذا النوع قوله تعالى :

« يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير » (الحجرات ١٣) .

وقوله « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » (آل عمران ١٠٤) وبعض الآيات طويلة جداً وقد تجاوزت عشرين جملة في آية الدين في آخر سورة البقرة عدا الجمل الفرعية التي تضمنتها .

طبيعة الآية وخصائصها :

ومما تقدم يتبين أن تقسيم الكلام القرآني إلى آيات هو غير تقسيم الكلام إلى جمل ، فالآية هي جزء من الكلام يستقل من حيث الترتيل لا من حيث المعنى فهي وحدة ترتيلية فنية . وهي تقابل الشطر أو البيت في الشعر ، مع أن القرآن ليس بشعر ، ولا يقابلها أي شيء في النثر . ولا علاقة لها بالسجع والكلام المسجوع كما سيتبين معنا في الكلام عن نغمة الكلام في القرآن وجمال الترتيل والموسيقى . ويجدر بنا لنعرف تنوع موسيقى القرآن ونغمته بتنوع الأفكار والمعاني أن ندرس تركيب الآية وأنواعها من حيث التركيب .

تركيب الآيات :

قد تكون الآية كلمة واحدة وأكثر ما تكون كذلك في أوائل بعض السور للإثارة ولفت النظر والمباغتة ، وذلك مثل قوله (الحاقة) و (القارعة) (والطور) . وقد تتألف من كلمتين كالآيات الثلاث من سورة الطور هذه (وكتاب مسطور . في رق منشور . والبيت المعمور . والسقف المرفوع . والبحر المسجور) وكذلك هذه السورة الأخرى التي تبتدىء بكلمة واحدة ثم تتتابع السورة كلمتين كلمتين ثم ثلاث كلمات ثم أربعاً ثم خمساً وهي سورة الرحمن :

« الرحمن . علم القرآن . خلق الإنسان . علمه البيان . الشمس والقمر بحسبان . والنجم والشجر يسجدان . والسماء رفعها ووضع الميزان . ألا تطغوا في الميزان وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان » .

وتركيب الآية القرآنية مرتبط بتركيب الجمل ولذلك كان من الضروري دراسة الجملة القرآنية وأنواعها من حيث التركيب والتأليف وهو ما سنفعله في بحثنا هذا :

في القرآن الكريم أنواع كثيرة من التراكيب تتدرج من الجملة البسيطة القصيرة التي تقتصر على أبسط عناصرها إلى الجملة المركبة الطويلة المؤلفة من عناصر متعددة بينها ترابط وتشابك ، ونقدم نماذج من هذه الأنواع فيما يلي :

١ ــ الجملة البسيطة القصيرة :

ومن هذا النوع قوله تعالى في سورة النجم : « وأنه هو أضحك وأبكى . وأنه هو أمات وأحيا . وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى . من نطفة إذا تمنى . وأن عليه النشأة الأخرى . وأنه هو أغنى وأقنى وأنه هو رب الشعرى . وأنه أهلك عاداً الأولى . وثمود فما أبقى » .

وكذلك قوله تعالى في سورة الشعراء :

« واتل عليهم نبأ إبراهيم . إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون . قالوا نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين ، قال هل يسمعونكم إذ تدعون . أو ينفعونكم أو يضرون . قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون . قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون . أنتم وآباؤكم الأقدمون . فإنهم عدوٌّ لي إلا ربَّ العالمين . الذي خلقني فهو يهدين . والذي هو يطعمني ويسقين . وإذا مرضت فهو يشفين . والذي يميتني ثم يحيين . والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين ... » .

فالمتأمل لهذه الآيات يجد أنها مؤلفة من جمل قصيرة مقتصرة على عناصرها الأساسية من الفعل والفاعل والمفعول به أو المجرور من غير تعدد هذه العناصر ، مع مراعاة التناسق وجمال النغمة .

٢ ــ الجملة البسيطة الطويلة :

ويتألف هذا النوع من الجمل من جمل قصيرة بسيطة متصلة مرتبط بعضها ببعض بالعطف أو غيره ، كأن تصل بينها لام التعليل ، أو تكون الثانية نعتاً للسابقة أو لجزء منها وهذه نماذج من هذا النوع :

قال تعالى : « ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه / إني لكم نذير مبين . أن لا تعبدو إلا الله / إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم . فقال الملأ الذين كفروا من قومه / ما نراك إلا بشراً مثلنا / وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي / وما نرى لكم علينا من فضل / بل نظنكم كاذبين . » (سورة هود)

هذه آيات ثلاث كل آية منها تتألف من عدة جمل قصيرة بسيطة يتصل بعضها ببعض فيتألف منها جملة طويلة ، ولكنها بسيطة التركيب غير متداخلة العناصر . ومثلها قوله تعالى في السورة نفسها :

« ويصنَع الفلك / وكلَّما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه / قال إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون . »

وفي سورة فصلت : « وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه / وفي آذاننا وقر / ومن بيننا وبينك حجاب / فاعمل إنا عاملون . »

ومثلها قوله تعالى في سورة النحل « وهو الذي سخر البحر / لتأكلوا منه لحماً طريا / وتستخرجوا منه حلية تلبسونها / وترى الفلك مواخر فيه / ولتبتغوا من فضله / ولعلكم تشكرون » .





وهذا النوع من الآيات التي تتألف كل آية منها من جملة طويلة ولكنها ذات فقرات قصيرة ، أو بتعبير آخر ينشأ طولها من اتصال جمل قصيرة بسيطة ، إن هذا النوع كثير في القرآن وله نغمته الخاصة وطابعه الخاص ، وهذه أيضاً نماذج من هذا النوع نفسه :

« أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب / تجري من تحتها الأنهار / له فيه من كل الثمرات / وأصابه الكبر / وله ذرية ضعفاء / فأصابها إعصار / فيه نار / فاحترقت / كذلك يبين الله لكم الآيات / لعلكم تتفكرون . » البقرة ٢٦٦ .

« الله نور السماوات والأرض / مثل نوره كمشكاة فيها مصباح / المصباح في زجاجة / الزجاجة كأنها كوكب دري / يوقد من شجرة مباركة / زيتونة لا شرقية ولا غربية / يكاد زيتها يضيء / ولو لم تمسسه نار / نور على نور / يهدي الله لنوره من يشاء / ويضرب الله الأمثال للناس / والله بكل شيء عليم .

٣ ــ الجملة الطويلة المسلسلة :

بعض الآيات القرآنية تتألف من جمل مترابطة مسلسلة تتصل أجزاؤها وجملها الصغيرة بعضها ببعض اتصالاً وثيقاً ، فلا يمكنك أن تقطعها إلى جمل منفصلة مستقلة ، والترابط بينها أشد من مجرد العطف ، وليس هو مجرد التصاق وتعاقب ، وذلك كآية الدين في آخر سورة البقرة وهي قوله تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه ، وليكتب بينكم كاتب بالعدل ، ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله ، فليكتب وليملل الذي عليه الحق ، وليتق الله ربه ولا يبخس منه شيئاً ، فإن كان الذي عليه الحق سفيهاً أو ضعيفاً ، أو لا يستطيع أن يمل هو فليملل وليه

بالعدل ، واستشهدوا شهيدين من رجالكم ، فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء . . . . . (سورة البقرة)

وتستمر الآية هكذا متسلسلة متصلة حتى تبلغ صفحة كاملة ، أو خمسة عشر سطرا ، ويلاحظ فيها اتصال المعاني من غير تشابك أو تداخل بين عناصر الجمل ، ومثلها قوله تعالى في سورة الحج : « يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ، ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ، ثم نخرجكم طفلا ، ثم لتبلغوا أشدكم ، ومنكم من يتوفى ، ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا . وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج » .

فهذه آية واحدة وفكرة واحدة متسلسلة المعاني وتنتهي بشاهد أو مثل ، وكذلك تركيبها ونظم الكلام فيها فهو يشتمل على النداء والشرط والتعليل والعطف .

٤ — الجملة الطويلة المركبة :

وهي تختلف عن النوع السابق بأنه لا يمكن تقسيمها إلى فقر منفصلة لأنها متشابكة العناصر لا ينفصل أولها عن آخرها ، ولا يفهم معناها إلا إذا قرئت كلها جملة واحدة فقد يكون المبتدأ في أولها والخبر في آخرها أو العكس مع تعدد العناصر المعطوف بعضها على بعض كقوله تعالى :

« إن في خلق السموات والأرض ، واختلاف الليل والنهار ، والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس ، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابّة ، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون . » سورة البقرة .





فقد جاء الخبر المقدم في أول الآية والمبتدأ في آخرها ، وبينها كلام طويل تضمن عناصر متعددة : خلق السموات والأرض ، اختلاف الليل والنهار ، الفلك التي تجري في البحر . . .

وهذه العناصر نفسها يتألف كل منها من مضاف ومضاف إليه ، والمضاف إليه نفسه متعدد أيضاً أو يتألف من اسم موصول مع جملة هي صلته تعطف عليها جمل أخرى .

ومن هذا النوع جمل أو آيات تتألف من شرط وجوابه وتتعدد فيها العناصر كذلك كقوله تعالى :

« قل إن كان آباؤكم و أبناؤكم و إخوانكم و أزواجكم وعشيرتكم ، وأموال اقترفتموها و تجارة تخشون كسادها ، و مساكن ترضونها ، أحبَّ إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره ، والله لا يهدي القوم الفاسقين » (التوبة) فهذه الآية تتألف من جملة طويلة مذيلة بجملة كما يلي :

١ – جملة قل مع مقول القول المذيلة في آخرها بجملة والله لا يهدي القوم الفاسقين .

٢ – مقول القول يتألف من جملة شرطية .

٣ – الجملة الشرطية يتألف فيها الشرط من جملة كان واسمها وخبرها .

٤ – اسم كان (المسند إليه) يتألف من ثمانية عناصر أو أسماء معطوف بعضها على بعض ، خمسة منها مفردة وثلاثة موصوفة بجمل .

٥ – خبر كان اسم تفضيل متبوع بثلاثة أسماء : أحب إليكم من . . . .

٦ – جواب الشرط (فتربصوا حتى يأتي الله بأمره) يتألف من جملتين

٧ – وأخيراً جملة تذييلية منفصلة مناسبة لفكرة الجملة المذيَّلة .

ومن نماذج هذا النوع من الآيات ما اشتمل على اعتراض أو جملة اعتراضية قد يقصر كقوله تعالى :

« وإذا بدلنا آية مكان آية – والله أعلم بما ينزل – قالوا إنما أنت مفترٍ بل أكثرهم لا يعلمون . »

وقد يطول كثيراً حتى لا يكاد القارئ يفهم جملة المعنى إلا بعد التأمل المتمهل وقد يكون ذلك في عدة آيات تتألف منها جملة واحدة وفكرة واحدة ، تتخللها جمل اعتراضية تطول أيضا ، وإليك هذا النموذج النادر في قوله تعالى والكلام عن بني إسرائيل :

فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف ، بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا ● وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيما ● وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله – وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم ، وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقينا ● بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيما ● وإنْ من أهل الكتاب إلا ليؤمننّ به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا – ● فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أُحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيرا ● وأخذهم الربا وقد نُهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل وأعتدنا للكافرين منهم عذاباً أليما ● (النساء ١٥٦)

وأصل الكلام : حرمنا على الذين هادوا (اليهود) طيبات أحلت لهم بسبب نقضهم الميثاق وكفرهم ... وقتلهم الأنبياء ... وقولهم ... وكفرهم وقولهم على مريم ... وقولهم إنا قتلنا المسيح – وهنا يأتي كلام معترض طويل في ثلاث آيات » وبظلمهم وصدهم عن سبيل الله وأخذهم الربا وأكلهم أموال الناس » .. وسنعود إلى الكلام عن هذا النوع الفريد الذي يلفت نظر الباحث اللغوي ويسترعي اهتمامه ويثير تطلعه .

ويتصل بموضوع أنواع الجمل وطرائق تركيب الكلام الذي تتألف منه الآيات القرآنية موضوع الترتيب ، أي ترتيب عناصر الكلام وأجزاء الجملة تقديماً وتأخيراً ، وموضوع طريقة صوغ الكلام وتركيبه في القرآن الكريم ، وسنتناول هذين الموضوعين بإيراد بعض الملاحظات بإيجاز .

الترتيب :

لقد بحث علماء البلاغة في علم المعاني موضوع التقديم والتأخير والأسباب الدافعة إلى ذلك سواء أكانت معنوية ، أي لاعتبارات تعود إلى المعنى كالتشويق أو العناية والإشادة ، أو القصر والحصر ، أم فنية تعود إلى جمال الصياغة وحسن الجرس وحلاوة النغم ، وإليك نماذج من الآيات التي حصل فيها تقديم وتأخير يخالف الترتيب النحوي المعهود ، ولاحظ ما يكسب ذلك الكلام من ناحية المعنى أو من ناحية جمال اللفظ :

« قل أفغير الله تأمرونّي أعبد أيها الجاهلون » والأصل أن نقول : قل أيها الجاهلون أتأمرونني أن أعبد غير الله .

« ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية » وقد تأخر الفاعل في الجملة إلى آخرها .

« ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه » وقد أخر الفعل إلى آخر الجملة ، وكثيراً ما يكسب الترتيب الكلام حلاوة في النغم بالاضافة إلى ما يفيده من معان أخرى ، كالاهتمام أو المفاجأة أو التشويق ، ويظهر ذلك واضحاً في الآيات التالية :

« واقترب الوعد الحق فاذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا » وهو اوقع وأقوى تأثيراً في نفس السامع من قولنا فاذا أبصار الذين كفروا شاخصة ، وكذلك قوله تعالى :





« وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة » بدلاً من ناظرة إلى ربها .
وقوله : « خذوه فغلوه ثم الجحيم صلوه » بدلاً من ثم صلوه الجحيم .
وقوله : « إن إلينا إيابهم ثم إن علينا حسابهم » .

الصياغة والتركيب :

إن المعنى الواحد يمكن أن يؤدى في اللغات الراقية في صيغ متعددة ويمكن أن يؤلف الكلام في صور شتى تختلف في تراكيبها وأساليب تأليفها وكثيراً ما يعدل عن الطريق المألوفة في التركيب المعتاد والتأليف المعهود لأهداف فنية ومقاصد بلاغية ، وهذه نماذج من آيات الكتاب الكريم يلاحظ فيها جمال التركيب غير المألوف : « وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل » .

والتركيب النحوي العادي يقتضي أن تقول : وإذ يرفع إبراهيم وإسماعيل قواعد البيت فجاء في الآية (القواعد من البيت) بدلاً من قواعد البيت وفرق بين إبراهيم وإسماعيل لينتهي الكلام بلفظ إسماعيل ، وتتوازن أجزاء الكلام من حيث الجرس والنغمة .

وكذلك قوله تعالى « لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » فصيغ الجزء الأول من الكلام (الخوف) صياغة اسمية ، والجزء الثاني (الحزن) صياغة فعلية ، ولو صيغ كلاهما صياغة اسمية (لا حزن عليهم ولا خوف) أو صياغة فعلية (لا يخافون ولا يحزنون) لما كان للكلام هذا الوقع الجميل .

واستمع إلى قوله تعالى :

« ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون » .

وقوله « كانت أعينهم في غطاء عن ذكري وكانوا لا يستطيعون سمعا » .

فكلا الآيتين تفيد نفي السمع والإبصار عنهم ولكن المعنى صيغ في صياغة أجمل وأوقع من قولنا (لا يسمعون ولا يبصرون) مع تنوع الصياغة في

الآيتين . ومن التراكيب التي تلفت النظر في القرآن الكريم تكرار أول الآية حينما يطول الكلام ، كقوله تعالى « إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين » .

ولو أنك قرأت الآية من غير هذا التكرار للفظ (رأيتهم) لشعرت بالفرق الكبير بين جمال نغمة الآية وقوة تعبيرهـا عن المعنى وضعف الجملة بعد الحذف .

ومثلها قوله تعالى :

« إن ربك للذين عملوا السوء بجهالة ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم » وقوله « لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب » .

وقد عني علماء البلاغة في علم المعاني بالبحث عن كثير من طرائق تأليف الكلام وتركيبه فبحثوا في أساليب الإطناب وهو تفصيل الكلام ، وأساليب الإيجاز ، وفي التقديم والتأخير ، ولكننا نرى أن المجال لا يزال واسعاً أمام من يريد البحث في أساليب النظم القرآني بحثاً مستقلاً .

فوائد البحث في أنواع الجمل و أساليب التركيب في الآيات القرآنية :

إن ما قدمناه من الكلام في تصنيف الآيات والجمل القرآنية وما يتبع ذلك من البحث في الترتيب والتركيب له فوائد عديدة . (فمنها) فائدة تعليمية وذلك أنه يمكن أن يتدرج المتعلم للغة العربية وللقرآن نفسه من الجمل القصيرة البسيطة ثم يرتقي إلى الآيات المؤلفة من جمل طويلة بسيطة التركيب متوالية الفقرات ثم ينتهي بالآيات الطويلة المركبة . (ومنها) ما تقدمه هذه

الدراسة من كسب لفقه اللغة الذي تدرس فيه تراكيب الكلام واختلافها باختلاف العصور وعقليات الأمم. ولا بد هرنا أن تلفت نظر الباحث ظاهرة غريبة ذلك أن الجمل الطويلة المركبة في القرآن قد تطول حتى تبلغ أحياناً مقدار صفحة من كتاب، وتتركب أجزاؤها في تركيب مرصوص محكم مترابط لا يقبل الفصل ولا التقسيم ولا التجزئة، لتعبر عن فكرة متعددة الجوانب كثيرة العناصر، بين جوانبها هذه صلات وبين عناصرها روابط. هذا النوع من الجمل لا نجد له نظيراً في نثر اللغة العربية قبل عصر القرآن بل ولا في عصر القرآن نفسه فلا نجد مثله في رسائل النبي ﷺ ولا في رسائل الخلفاء والصحابة وخطبهم ولا في عصر بني أمية، ولا نكاد نجد أمثال هذه التراكيب إلا في عصور متأخرة من عصور العربية، وهي العصور التي ارتقى فيها الفكر وبلغ درجة عالية من القدرة على التركيب بين المفاهيم والعناصر، وهذه من خصائص القرآن المميزة التي تفسح المجال للتأمل والتفكير وتجعل القرآن نسيج وحده في تاريخ النثر العربي، وتجعله خارجاً عن مراحل التطور وعوامله.

وهناك أخيراً فائدة فنية لدراسة أنواع الجمل وأساليب التركيب وألوان الصيغ فهي منبع خصب للجمال الفني سواء فيما تقدمه من ألوان معنوية أم من موسيقى توارف الفكرة وتتعاون معها بتوافق وانسجام. ونحب أن نختم بحثنا هذا بعرض موجز للجانب الموسيقي من النظم القرآني.

النغم والموسيقى:

يشعر قارىء القرآن شعوراً طبيعياً بدافع قوي يدفعه إلى ترتيله ترتيلاً صوتياً له نغماته في كل كلمة من كلماته بل في تتابع حروفه، وحلاوة النغمة في الكتاب العزيز تتخلل الآية في جميع أجزائها وحروفها، ولا تقتصر على

الوقوف عند الفاصلة في آخر الآية التي تقابل السجع ، وإليك بعض خصائص هذه الموسيقى القرآنية :

١ – فقد تكون ضرباً من الإثارة وأداة للتنبيه والمفاجأة ، وخاصة في العهد المكي الأول حين كان العربي سادراً في غلوائه غير مستعد للاصغاء إلى الدعوة الجديدة ، ومن أمثلة ذلك مقدمة سورة الحاقة :

الحاقّة . ما الحاقّة ؟ وما أدراك ما الحاقّة ؟

وكذلك : القارعة . ما القارعة ؟ وما أدراك ما القارعة ؟

ثلاث موجات متعاقبة تكبر وتتسع متصاعدة في طولها ومدودها . وتتصف كل واحدة منها بالشدة والمد في وسطها ويتعدد ذلك ويتكاثر في الثانية والثالثة .

ويتناسب ذلك مع هول الموضوع الذي هو (يوم القيامة) ومع هذه الاستفهامات المتوالية المشوقة لمعرفة الجواب .

٢ – وقد تكون تصويراً صوتياً موازياً ومقارناً للتصوير التعبيري وذلك في مثل مقدمة سورة العاديات ، فهي وصف للخيل التي تعدو في غارة صباحية حتى تصل إلى هدفها ، فاستمع إلى هذه الفقرات المتقطعة تقطع مسير الخيل المتساوية في أجزائها :

« والعاديات ضبحا . فالموريات قدحا . فالمغيرات صبحا . فأثرن به نقعا . فوسطن به جمعا » .

الآيات الثلاث الأولى قصيرة سريعة متساوية في الطول وفي الوزن والنغمة وتتألف كل واحدة منها من الكلمة الأولى المشتملة على مدّين والثانية لا مد إلا في آخرها ، وفي كل منها تصوير لارتفاع الخيل ثم هبوطها واصطدامها بالأرض ، وتأتي الآيتان الأخيرتان لتصورا بانعدام المدّ فيها وتوالي الحركات سرعة جري الخيل وتتابع حركاتها حتى تصل إلى هدفها (فوسطن به جمعا) .





٣ – والمهم في النغمات القرآنية تناسبها مع الموضوع والفكرة شدة ولينا وسرعة وبطأ .

فإذا كان الموضوع حديثاً عن يوم القيامة وهولها وتعاقب أحداثها قصرت الآيات وكثرت فيها الحروف ذات الشدة والصليل وقلت المدود أو فقدت كقوله تعالى :

« فإذا بَرِق البصر . وخَسَف القمر . وجُمع الشمس والقمر . يقول الإنسان يومئذ أين المفر ؟ » (سورة القيامة)

وإذا كان الكلام دعاء جاءت المدود التي تكسب النغمة هدوءاً وطولا وتصور التأمل العميق ونداء المستغيث كقوله تعالى :

« ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذابَ النار . ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته وما للظالمين من أنصار . ربنا إننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ، ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار . ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد » (آل عمران ١٩١) .

واستمع إلى قول من استحق بعد الحساب دخول النار إذ يعبر عن حسرته ويتأوه :

« وأما من أوتي كتابه بشماله فيقول : يا ليتني لم أوت كتابيه . ولم أدر ما حسابيه . يا ليتها كانت القاضية . ما أغنى عني ماليه . هلك عني سلطانيه » .

ثم انظر كيف تتغير النغمة وتأتي حروف الواو لتصور دفعه إلى جهنم دفعا ثم كيف تطول الآية والنغمة في آخرها حين تلتف حوله سلسلة طويلة من سلاسل جهنم :

« خذوه فغلوه . ثم الجحيم صلّوه . ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه » . « الحاقة »

والأمثلة على ذلك كثيرة جداً .

٤ — تنوع نغمات الآيات طولاً ووزناً وفاصلة (قافية) :

فقد تتماثل وتتساوى الآيتان مثل قوله تعالى « إن إلينا إيابهم ثم إن علينا حسابهم » .

وقد يكون التوازن مع اختلاف الفاصلة كقوله تعالى :

« آتيناهما الكتاب المستبين وهديناهما الصراط المستقيم » .

وكقوله : « نمارق مصفوفة وزرابي مبثوثة » (الغاشية)

وقد تتوالى الآيات كموجات متساوية متتابعة كقوله تعالى :

« في سدر مخضود وطلح منضود وظل ممدود » .

وقوله : « إذا الشمس كورت . وإذا النجوم انكدرت . وإذا الجبال سيرت . وإذا . . . » (التكوير) .

وقد تتصاعد الموجات وتتسع وتطول في تتابعها كقوله تعالى :

« والضحى . والليل إذا سجى . ما ودّعك ربك وما قلى » .

« الحاقة . ما الحاقة . وما أدراك ما الحاقة » .

وقد تتنوع الموجات طولاً وقصـــرا وتتفق فاصلةً (قافية) وتختلف فيتألف من مجموعها قطعة رائعة فاستمع إلى قوله تعالى :

« والطور . وكتاب مسطور . في رق منشور . والبيت المعمور . والسقف المرفوع . والبحر المسجور . إن عذاب ربك لواقع . ماله من دافع . يوم تمور السماء موراً . وتسير الجبال سيرا . فويل يومئذ للمكذبين . »

٥ — والنظم القرآني بالجملة نظم يبدو فيه الجمال الموسيقي أو حلاوة النغمة وليست القضية أبداً قضية نثر مسجوع ، إذ شتان بين السجع والموسيقى ، فموسيقى القرآن داخلية تتخلل الكلام كله ، وتنتظم جميع أجزائه ، كلماته وحروفه ، مع مراعاة التناسب بين نوع النغمة وصفاتها ، والفكرة أو الموضوع أو المشهد الذي تعبر عنه الآيات . واقرأ إذا شئت لتشعر نفسك بهذه الموسيقى الداخلية أي جزء من الكتاب الكريم ، إقرأ إذا شئت هذه الآيات : « وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ، ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشورا . إقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا . من اهتدى فانما يهتدي لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا . » (الإسراء)

ولو قرأت حتى آيات التشريع والأحكام لوجدتها متصفة بهذه الخاصة الموسيقية ، ولعل جمال النغمة هو السبب في العدول في كثير من الآيات عن طرائق التركيب والتأليف المعتادة إلى صياغة خاصة في الكلام ، ولو رجعت إلى الآيات التي استشهدنا بها آنفاً في طرائق التركيب لوجدت صدق هذه الملاحظة .

ولعل الباحثين في اللغة والمشتغلين بالأدب وفنونه وأساليبه يتوسعون ويتعمقون كلّ في اختصاصه في دراسة النظم القرآني ليقدموا للأجيال القادمة ما يمكنهم من تذوق لغة القرآن وفنه ، وما يجعل صلتهم بالعربية أعمق وشعورهم بجمالها أدق وأرهف ، وليؤدوا لكتاب الانسانية الخالد بعض حقه .

محمد المبارك

